الصداقة والخصومة

واثرهما فى الحياة والادب

للأستاذ عبد الوهاب عزام الخطيب

— ١ —

أرجع القهقرى بالذاكرة ثلاثين سنة ، فألمح فى طفولتى المرحة ، صبية متآخين متحابين ، قد جمعت بينهم أواصر القربى ، وتقارب الميلاد ، وأوقات الفراغ ، وكرة المضرب . لا يحمل الواحد منا فى صدره البرىء ، غير محبة الوالدين ، والتعلق بالزملاء اللاعبين الذين يحاول الغلبة عليهم . أو الذين يستعين بهم فى التغلب على غيره ، فاذا ما اجتمعنا فى المكتب ، طغت على الذكى منا سيطرة النبوغ واستعلاء العقل ، بينما يطغى على قوى البنية منا جبروت القوة وسلطان الجسم ، وكثيرا ما كانت تحدث صداقات أو عداوات !!

فى هذه الفترة من الزمن — والطفل فى السابعة من عمره — لا أستطيع أن أحكم حكما صحيحا على وجود الصداقة أو الخصومة ، إلا أننى أؤكد أن الاشخاص الذين ملت اليهم بعواطفى فى هذه السن ، لا أزال أذكر بالاعزاز عهدهم ولا أزال أحمل فى طوايا نفسى لهم حبا واخاء وأؤكد أيضا ، أن الآخرين الذين صدرت منهم

فى حقى كلمة جارحة . أو إيذاء بالضرب أو كانوا مسيطرين بقوتهم ، منتهزين فرصة ضعفى ، وتحول جسدى، هؤلاء لا أفتأ أنظر اليهم نظرة فيها شيء من السخرية إلا من تربطنى بهم علائق القرابة — كما أنى لم أتخذ منهم فيما بعد أصدقاء.

لم نكن فى الصغر محتاجين إلى الاخوان إلا بمقدار ما يبعث حب اللعب فى نفوسنا من البهجة والسرور ، لم نكن فى حاجة إلى منفعة ، اكتفاء بما فى بيوتنا من النعمة ، ولم نكن لنشعر الحزن والالم حتى نطلب العون عليهما من الاصدقاء ، ولم نتذوق طعم الفضيلة والواجب والخير ، حتى نصطفى إخوانا فى كل أولئك

غير أن هناك أناساً قد امتزجت قلوبنا بقلوبهم ، واطمأنت نفوسنا الى نفوسهم واجتمعت أهواؤنا وأهواؤهم ، فبادلناهم فى تلك السن المبكرة ، عواطف محبة ، اعتقد أنها كانت بذورا صالحة . لما انعقد بعد ذلك بيننا وبينهم من الصداقة

— ٢ —

واغتربت عن أهلى طلبا للعلم والمعرفة ، ولقيت طلابا صحبت منهم من يقاربنى فى السن أو فى العقل ، أو من ينتسب الى بلدة قريبة من بلدتى ، أو من تتفق رغائبه ورغائبى ، ولقيت طلابا آخرين يحملون فى صدورهم الحسد والحقد لبعض الناس ويكثرون من التكلم فى شأن سواهم على غير مسمع منهم أو مشهد ، فتجنبتهم ، ولم أتخذ منهم خليلا .

وطالت أعوام الدراسة وامتدت ، واختلفت معاهد العلم وتنوعت وتنقلت من مدينة إلى مدينة ، وتخلف عنى الاخوان من تخلف ، وأتم الدراسة منهم من أتم واستقبلت إخوانا آخيتهم من جديد ، وطلابا لم آبه لشأنهم ، كما هى الحال عند غيرى من الناس .

الاخوان الذين أصطفيتهم فى سنى الدراسة ، — وهم غير المعارف ، يسرنى أشد السرور أن اراهم . أو أرى من يراهم ، أو أن أسمع خبرا سارا من جهتهم ، وبعبارة اخرى لهم فى نفسى منزلة القرابة القريبة ، المعمورة بالمودة والمصافاة ، سواء منهم من لم يتم ، ومن أتم ، وسواء منهم من بعد عن العين ، ومن قرب منها

— ٣ —

وانتقلت من الحيز الضيق ، إلى أفق الحياة ، حياة العمل ، وحياة المجتمع ، وحياة العقل والقلب والبيان .

والإنسان لا يعمل مستقلا ، بل إن له شركاء ، وإن عليه رؤساء ، أما شركاؤه ، فيسره أن يبزهم ، كما يسرهم أن يفوقوه ، وأما رؤساؤه فيهمه أن يرضوا عنه ويقدروه ، كما يهمهم أن يؤدى واجبه فى طاعة لهم ، واحترام لآرائهم ، على أن يكون عرضة للعقاب إن بدا منه ضعف ، أو ارتكب إحدى الغلطات ! ! فهو لذلك قلما يتخذ من بينهم صديقا .

الموظف — بحكم الوظيفة — يقضى وقتا طويلا بين هؤلاء ، وهو مضطر — بحكم الإنسانية — أن يختار من هذا الوسط من يأنس منهم — مع وجود روح التنافس — نبل الحس ، ورقة الشعور وكرم المحتد ، وصفاء النفس ، وعذوبة اللسان . أو من فيه صفات مقاربة لصفاته الشخصية من نواحى الميول والأخلاق .

وكلما كان الوسط الذى يعمل فيه الانسان ، خليطا من أناس مختلفى الثقافة ، متباينى الأهواء ، كان ذلك أدعى الى الاحتراس والحيطة ، فى اصطفاء من يصطفى ، ومؤاخاة من يؤاخى . الا أن الشخص المهذب كثيراً ما يكون مرموقا بعين الاجلال والمحبة ، يود كل من زملائه أن يكون له صديقا ، فهم يقابلونه بالبشر ، ويستمعون لحديثه ان تكلم ، ويعاملونه معاملة تشعره بمنزلته ، وتدعوه أن يكون معهم على الدوام ، رجلا مثاليا كريما ، غير ان المعاملة شىء ، والصداقة شىء آخر .

أما البيئة المتقاربة فى العقليات والمعارف ، والرغائب والآمال ، فانه يسهل على الإنسان فيها أن يختار من يرافقه من الاخلاء ، ويجتنب من لا يرى فى قلبه ميلا ولا هوى اليه . ومع ذلك . فما أكثر ما يتعرض الأصدقاء فيها لتطبيق بيت ابن الرومى :

من جور إخوان الزمان سرورهم .. يتفاضـــل الأحوال والأخطار

وبحكم العمل ، ينتقل الموظف من مكان الى مكان ، ويضطر الى أن يصاحب

من جديد أنا ساغير الذين أصفاهم بالمودة والاعزاز ، وتمر الايام والشهور والاعوام ويبلى من الذاكرة ما يمكن أن يتطرق اليه البلى من أسماء الزملاء ، وتتركز فى القلوب على مر الايام والشهور والاعوام ، صداقة من منحناهم كل مواطفنا وحبنا ، اننا نهش لذكراهم كلما مرت على خواطرنا سانحة ، ونبتهج لما يصلنا عنهم من خير ، ونبتئس اذا فهم شيء من السوء والمكروه .

— ٤ —

والانسان موجود اجتماعى كما يقول أرسطو — فهو لا يعيش فى المنزل والمكتب فحسب ، وانما يتراوح بين النوادى والمجتمعات ، ويرحل من جهة الى أخرى ، ويلقى أصنافا من البشر ، مختلفين فى طباعهم ومنازع أهوائهم ، وألوان ثقافاتهم ، وقد يكون من بينهم أناس أرضياء المحضر — كما يقول أرسطو أيضاً — فهو يأنس اليهم ، ويمنحهم من ذات نفسه محبة واكبارا متى وجد التلاؤم الخلقى بينه وبينهم . بينما يرى أشخاصا آخرين ، فلا يأبه لهم ، ولا يهمه من أمرهم شيء ، بل انه لا يحاول مهما جلس اليهم ، أن يوجد بينه وبينهم سبباً من أسباب التعارف .

الصلة التى تنعقد فى هذه الاوساط ، لا تأتى بسهولة ، ولا تحكم أواخيها الا بمرور زمن طويل وتجارب عديدة . فاذا ما توثقت عراها ، كانت من أعمق أنواع الصداقات ، وأبقاها على مر السنين .

— ٥ —

من هم هؤلاء الذين تستطيع قلوبنا أن تمنحهم كل مالديها من تبجيل وتقدير وحب ، وتحتفظ على مرور الزمن بجده مودتهم ، وما عسى أن يكون لهم من الاثر فى حياتنا وآدابنا ؟

لا يتشابه مخلوقان تمام الشبه من جميع الوجوه أبدا . بل لكل ذاتية خاصة يمتاز بها عن غيره من المخلوقات ، وكما تختلف ملامح الاوجه ، ونبرات الاصوات ، تختلف خلجات القلوب ، وموازين العقول ، وكما تتقارب تلك فى رأى العين ، وحجاب السمع ، تتقارب هذه فى مجرى الشعور ، ولون المعرفة

ونحن — بالطبيعة — لانصادق من يشاركنا فى لون البشرة ، أو فى سعة العين وضيقها ، أو فى قنو الانف وانخنافه ، أو فى رخامة الصوت وجهارته ، بل اننا نصادق من يمس احساسنا ، ويشعر كما نشعر ، ويفهم عنا ان تحدثنا ، ويفهمنا اذا تكلم ، ويبنى لنا فى السر والعلن وبيننا ذات نفسه ان كرثه أمر ، كما نستطيع أن نشكو اليه بثنا وحزننا ان أصابنا ما نكره .

— ٦ —

ولا ريب أن لاصدقائنا أثراً عظيما فى حياتنا الخاصة ، فاننا نرغب أشد الرغبة فى أن يشركونا فى ألوان السعادة التى تحيط بنا ان أصابنا خير . بل ان سعادتنا لا تتم الا بوجودهم الى جنبنا ، ينفحوننا من عطر مودتهم ، ونيل قلوبهم ، مايسمو بعواطفنا الى أعلى مراتب البشر والحبور .

واذا ضاقت بنا الحيل ، وأعيانا المال ، واشتد بنا الزمن ، وتوالت علينا أحداث الدهر ونوائب الايام ، فاننا كثيراً ماننلجأ — ولو مرغمين — الى هؤلاء الذين نتوسم فيهم من اخواننا فضلا من نعمة ، يقاسموننا اياه عن طيب خاطر منهم ، وحسن مؤاساة ، وجميل ما عون . فى غير من ولا أذى ، ولا تعرض لجرح عزة .

وينتابنا المرض ، أو نصاب بجادث مروع أو يتعرض عزيز من أعزائنا لمكروه ، فيكون فى عيادة أصدقائنا لنا وسؤالهم عنا بلسم لقلوبنا أنجع من الدواء علاجا ، وخير من طب الاطباء نتيجة ، اننا نرتاح عندما نراهم ، ونحس ببرد العافية يتمشى فى أوصالنا ، ولا نشعر . ونحن ننظر اليهم مهما اشتدت علينا وطأة المرض ، ومهما روعتنا الحوادث ، الا بأحلى ماتتذوقه النفوس من ضروب البهجة وألوان السرور .

ونحن نستشيرهم فى كل مايهمنا من أمورنا ، ونقلب معهم أوجه الرأى حتى نطمئن إلى مايبغى سلوكه من المذاهب المتشعبة ، ونوقن — إذا أخطأنا عن مشورتهم أننا سعداء بهذا الخطأ لأنه نتيجة لآراء أضفى عليها الاخلاص ، والصراحة والصدق خير مايضفى من لآلا ورواء .

وإذا ملنا عن طريق الهدى ، وسولت لنا نفوسنا النزاعة إلى الشر ، أمرا خارجا عن حدود الأدب والدين والفضيلة ، فاننا لانجد أصدق من النصيحة يسديها الينا صديق كريم النفس . قوى الايمان ، شديد الحب للخير ، فلا نلبث أن نلقى قلوبنا منصاعة إلى هديه ، منقادة معه الى سبيل الرشاد .

ذلك بعض أثر الاصدقاء فى الحياة النفسية ، أما فى الحياة العملية ، فاننا كثيرا ما نرى أصدقاء يسلكون منهجا سويا ، وطريقا واحدا ، فيؤسسون الشركات . وينشئون المصانع والمعامل ، والمتاجر ، ويشتركون فى التأليف أو التعليم ، أو المحاماه أو الزراعة . أو فيما يشاءون من مناهج الحياة وطرقها وينجحون فى كل عمل يقولونه نجاحا منقطع النظير . لأنه نجاح قوى متضافرة من الحب والصدق والصفاء .

— ٧ —

وتدب عقارب التميمة بيننا وبين أصدقائنا . وتقع قلوبنا فى حيرة من الأمر قد تنتهى إلى قطيعة أو جفاء . فيجىء دور البيان والأدب فى صورة عتاب رقيق أخاذ بمجامع القلوب . فلا يلبث أن يؤثر تأثيره السحرى . فيعود الأصدقاء إلى أحسن ما كانوا عليه قبل من المودة والتواصل .

ويفارق الخليل أخلاءه إلى مكان قريب أو سحيق فيأسفون لفراقه ويقيمون له حفلات يجتمعون فيها معه إلى موائد الشاى والخطب والأشعار . فيمتدحون مناقبه ومزاياه . ويشيدون بفضله . ويذكرون الصداقة واعتزازهم بها . وحرصهم عليها وأن الزمن لن ينال منها مهما تقدم . ويشكر لهم الصديق المكرم . نبل عواطفهم فى قصيدة ينشدها أو خطابة يلقيها .

وإذا ما باعدت الأيام بين الصديقين . فانهما كثيرا ما يتلاقيان على صفحات الرسائل التى يدبجها كل منهما لأخيه . بانا شوقه . واصفا حاله . شاكيا ظروف زمانه . مؤكدا عهد الوفاء والاخاء . ويجىء الرد ملاحظا فيه الى كل أولئك . شعور فياض بالغبطة وأسلوب موفق بروائع الأدب شعرا كان أو نثرا

وتنتهي الحياة بالناس الى آجالهم المحدودة . وأعمارهم المحتومة . ويبكيهم أقرباؤهم بالدموع والعبرات . بينما تدمى امصارعهم قلوب أصدقائهم . ويرسلون فى مراثيهم لهم . زفرات تلظى بالوجد والحرقة . وتندلع بالفجيعة والالتياع . ويفيد الأدب من وراء ذلك . وتنمى ثروته العاطفية نماء فيه روح للقلوب المكلومة ، وعزاء للأفئدة المقروحة . وشفاء للنفوس الموجعة .

— ٨ —

دونت ما أشعر به فى طوايا نفسى من العواطف الخاصة بالصداقة . وأعتقد أننى لم آت بجديد . فكل انسان يحس ما أحسست . ويخالجه من النوازع ما خالجنى وهذا موضوع وفاه علماء الاخلاق حقه من البحث . من حيث ماهية الصداقة وأقسامها الأصيلة ومن هم الذين يصلحون أن يكونوا أصدقاء ، وما الحقوق التى للصديق على صديقه .

أما تكوين الصداقة بالأوضاع الحيوية : من الدين والسياسة . والعلم . والأدب . والفن . وصداقة الأسر . والملوك والشعوب . وأثر ذلك جميعه فى المذاهب العقلية والحياة الأدبية من شعر ونثر . والحياة الاجتماعية من تقدم وخمول والحياة الاقتصادية من رواج وكساد . وما يتصل بكل أولئك من أسباب ونتائج فهذا ما نحاول بقدر الامكان توضيحه وتبيانه .

— ٩ —

الصداقة رابطة اجتماعية تنعقد بين طرفين . والناس منهم الخير بطبعه . الفاضل بفطرته السليم جوانب الصدر ، المنطوى على حب الله فيمن خلق . ومنهم الشرير بالجبلة الخبيث بالسليقة . المجنى الأضالع على الحقد والحسد . الذى لا تستطيع اسمى المذاهب الاخلاقية أن ترده الى رشاد . ومنهم بين بين : كما قال الحزيمى

الناس أخلاقهم شتى وان جبلوا ٭ على تشابه أرواح وأجساد
للخير والشر أهل وكلوا بهما ٭ كل له من دواعى نفسه هاد
منهم خليل صفاء ، ذو محافظة ٭ أرسى الوفاء أواخيه بأوتاد

ومشعر الغدر ـ مجنى أضالعه ٭ على سريرة غمر غلها باد
مشاكس جذع ، جم غوائله ٭ يبدى الصفاء ويخفى ضربه الهاوى
يأتيك بالبغى فى أهل الصفاء ولا ٭ ينفك يسعى باصلاح لإفساد

هذا التباين الواضح فى طبائع البشر . جعل الحكماء والفلاسفة . والشرائع والأديان تنظر الى الخيرين الفضلاء نظرة اجلال وتكريم . بينما نراها تصب مقتها وجحيم غضبها على أولئك الأشرار الأراذل . وتود أن تمحو ماعلق بنفوس الفريق الثالث من ظلمات الرذيلة . لتكون جوانبها كلها وضاءة بأنوار الفضائل الساطعة

ولما كانت الصداقة رابطة بين اثنين كان من الضرورى وجود تلاؤم خلقى بينهما غير أن أفلاطون يرى أن هذه القاعدة العتيقة « الشبيه يحب عن الشبيه » ليست صادقة الا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لا يستطيع ان يعقد صداقة حقيقية لا مع الخير . ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لا ثبات له على حال . متغيرا . متخالفا مع نفسه . مضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك معه . صار عدوه حتما . لأنه سيتعدى عليه بعض الشىء . وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين؟

ولكن أليس من الجائز ان يتبادل الأشرار فيما بينهم المنافع . فيعرف بعضهم بعضا ويحتوى كل منهم على رفيقة . فتوجد صداقة مماثلة لصداقة الطبقة المتوسطة ؟

يعود افلاطون ـ ومذهبه مذهب مثالى رفيع ـ فيقرر ان الأشرار لا يستطيعون ان يأتلفوا زمنا طويلا . فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة فانها لا تلبث ان تباعد بينهم بل المنفعة التى تساعدها الرذيلة . تسلحهم بعضهم على بعض . وتصبح الجمعية وليس فيها الا اشرار . غير مستطيعة ان تبقى يوما واحدا

على ضد ذلك الفضيلة تدعو بالطبع بين القلوب التى تساوت فى حبها الى المودة والرحمة . وهى كقيل السلام فى المملكة ، ان الأهالى مرتبطون فيما بينهم . لأنهم يسعون جميعا الى الخير الذى فرضوه واجبا مقدسا على انفسهم طول حياتهم

ولكن قلبا كريما لا يكتفى بهذه الرعاية . التى يشعرها طبعا نحو الذين يشابهونه

بل الفضيلة تلهمه احساسا اصعب من ذلك واعز - فانه لما كان لا يقصر شأنه فى المعاملة على الاختيار - كان لازما عليه ان يعرف كيف يعيش مع الاشرار ولما كان محظورا عليه ان يأتى الشر - كان لا يعمل السوء لأعدائه - كما لا يعمله لأصدقائه - فانه يعرف ان الشر الذى يقع على الاشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم - وما فعل الشر - حتى بالاشرار الا قاعدة لا يجرى عليها غير الطغاة او المجانين - اما الرجل الحكيم - فانه على الضد من ذلك - يلطف الشرير بما يعمله له من الخير ، او على الاقل بما تضربه له من المثل الصالح من عدالته

ذلك اساس الحياة الاجتماعية عند افلاطون - وخلاصة رأيه - ان الفضيلة التى تتفتح أزهارها فى كنف العدل والرعاية - هى الرابط الحقيقى للجمعية الانسانية وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة الا بين الاخيار - وان الفضيلة هى شرط للسعادة فى الجمعية

— ١١ —

اما أرسطو - فقد افرد لنظرية الصداقة الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه العظيم علم الاخلاق الى نيقوماخوس

غير ان هناك ابوابا من الكتاب الرابع ينبغى الرجوع اليها قبل الكلام على الصداقة لانها تتصل بها اتصالا وثيقا

جميع الافعال التى مصدرها الفضيلة جميلة - وكل فعل مطابق للفضيلة ملائم هذا كلام حق وجميل وهو قريب جدا من كلام افلاطون

غير ان ارسطو يوضح بلباقة وكياسة ومهارة اخلاق الناس فى المجتمعات فيقسمهم ثلاثة اقسام : فيقول

فى العلاقات المتنوعة التى بين الناس فى حياتهم المشتركة - سواء فى المحادثة البسيطة ام فى الاعمال يوجد اناس يسعون الى ان يكونوا مقبولين لدى الجميع تأخذهم رغبة الارضاء بأن يقروا دائما كل شىء - فاذا لم يقصد الشخص فيهم من وراء الارضاء - الا ان يكون مقبولا فانه يسمى المساير فان قصد ان تعود عليه منفعة

شخصية كالاثراء او الحصول على الاشياء التي تسببها الثروة فذلك هو التخاص

والنوع الثانى . أناس على خلق مضاد لأولئك ، يأخذون بالمعارضة فى كل الأشياء، ويجدون كل مايصنع رديئاً ، وصاحب هذا الخلق ، هو الإنسان الصعب الشكس .

وكلا هذين باللوم جدير . والممدوح هو الوضع الوسط ، الذى يحمل المرء على أن يقبل أو يرفض من الناس أو الأشياء ماينبغى قبوله أو رفضه .

هذا الوضع يشبه الصداقة كثيراً ، لأن الرجل الذى نجده فيه : هو فى أعيننا بحيث نكون مستعدين أن نسميه صديقا حقا إذا جمع إلى معروفة شعوراً بالميل لنا. لكنه يخالف الصداقة ، فى أن قلب ذلك الانسان لايشعر بعاطفة البتة . وأنه ليس مرتبطا جد الارتباط بأولئك الذين يلتقى بهم ، لأنه ليس لحب أو لبغض صطنع الأشياء كما ينبغى بل لأنه هكذا خلق .

انه مع ذلك يكون مختلفا فى علاقاته مع الأشخاص أولى الأقدار ، ومع الناس عامين ومع الأشخاص المعروفين لديه قليلا أو كثيرا . انه يرعى بهذه العناية نفسها جميع الفروق الأخرى ، مؤتيا كل ذى حق حقه ، ساعيا من أجل ذلك فى دخال السرور على الغير ، متقيا الايذاء ، ولكنه يقصد دائما الجانب الذى يمكن ن تنتج منه نتائج خطيرة ، وأعنى بذلك أنه لايبحث إلا على الجميل والنافع ، وهو ارف عند الحاجة أن يحدث صغار الآلام تمهيداً فيما بعد للذة كبرى .

— ١٢ —

أما فيما يتعلق بتقدير الانسان لنفسه . من حيث اسباغه عليها صفة من الصفات ى تجعل الرجل نابه الذكر من غير استحقاق ، أو من حيث تناسيه صفة كريمة ه ، أو من حيث اعطاؤه نفسه حقها من غير غلو ، فان أرسطو يوضح ذلك بقوله:

الرجل الذى بلا مسوغ يبالغ فى الأشياء لفائدته ، يمكن أن يعتبر رذيلا . فان ان كذبه حباً فى الكرامات أو رغبة فى الشهرة ، فانه ليس جد أثيم . فان كذب يل المال ، أو مدفوعا بطمع من هذا النوع ، فقد فقد شرفه على وجه أكثر خطورة ى الحال الاولى .

هؤلاء الذين يكذبون ليحصلوا على شهرة ليس غير . يظهرون بمظهر الفخر الصلفاء ، وينسبون بالكذب إلى أنفسهم ميزات تستدعى ثناء الناس أو اعجابهم المسبب على الغيرة . وهؤلاء ، سرعان مايجرون على أنفسهم الاحتقار الذى هم به جديرون.

أما الذى يأبى على نفسه ماله من الخلال الحسنة ، أو يصغر من قدرها ، أو يميل إلى البخس دائما من قيم الاشياء ، فانه يظهر على العموم بأنه من خلق أحب وألطف ، إنه يريد أن يفر من كل ما يمكن أن يفضى الى الشهرة .

أما الرجل الذى هو فى عيشته وفى أحاديثه يقول الحق ، دون أن يكون الامر متعلقا بمنافع جدية ، بل لان ذلك فطرة فطر عليها ، فانه فى الواقع رجل نبيل ، وإنه إذ يتكلم عن نفسه ، يستد اليها ماله من صفات الخير فلا يجعلها أكبر ولا أصغر مما هية . وهذا الخلق هو على الحقيقة أهل للاحترام .

— ١٣ —

وفى الحياة أوقات راجة ، يلزمنا فيها مايباينا ، وفى تلك الاوقات يوجد أسلوب من أساليب العشرة ، رقيق الحاشية ، حسن الذوق . حدده أرسطو بأنه ينحصر فى قول ماينبغى كما ينبغى ، وفى استماع قول الغير بهذه القيود ، وقسم الناس أيضاً الى ثلاث طبقات :

فمنهم من يدفعهم ديدن الاضحاك الى البحث عن الهذر فى كل مقام . قاصدين أن يضحكوا أكثر من أن يقصدوا ألا يقولوا إلا الاقوال النزيهة المناسبة ، وألا يجرحوا من يمازحونه . ان هذا الذى لايعرف أن يقاوم لذة السخر ، لايبقى على نفسه كالا يبنى على غيره ، ولكى يحرص على الضحك ، يستبيح لنفسه أشياء لايفوه بها رجل شريف . بل لايطيق سماع بعضها : وذلك الماجن ، السيء . الثقيل الروح .

وفريق على الضد من ذلك . لايجدون قولا يسر ، ويحقدون على الذين هم أكثر منهم استعدادا للتنكيت ، أولئك هم قوم أفظاظ غلاظ ، غرباء عن علاقات الجمعية فى أوقات ، السرور لايأبهون لها ، ولا ينتفعون بها .

أما الذين دق ذوقهم فى المزاح . فانهم أناس أرضياء الحضر ، يمكن أن يقال

انهم من طبع مرن لين ، لأن هذه الصفات هى على وجه ما حركات أخلاقية . فالمهارة أو سلامة الذوق . هى مزية من مزايا الكيف الوسط ، الذى تمدحه فى هذا النوع . فالرجل ذو الطعم ، يعرف أن يقول . وأن يسمع ما يناسب الرجل كل الرجل. بحيث لا يؤذى من يسمعه وبحيث يلذ على ذلك لسامعه .

وهناك حالات تدعو الى ثورة النفوس، وانفعال الاحساس ، تظهر فيها الطبائع البشرية بمظاهر ممدوحة أو مذمومة ، من حيث الغضب والحلم والبلادة ، ولم يفت ذلك أرسطو ، بل لقد رسم بقلمه هذه الصور الاخلاقية رسما بديعا حيث يقول :

ان الناس الذين هم على خلق شرس ، يغضبون ممن لا يستحقون الغضب ، وفى فرص لا ينبغى فيها الغضب وانهم ليجاوزون فى غضبهم الحد اللائق ، نعم انهم يهدءون كذلك بغاية السرعة . وهذا هو أحسن ما يصنعون ؛ فاذا وقعوا فى هذا الخطأ ، فذلك لانهم لا يعرفون أن يكظموا غيظهم انهم يستشيطون غضبا فى الحال باظهار شهوتهم ، بسبب ما بهم من شدة فى حده الاحساس الذى يهيجهم على ذلك فالغضاب هم أو لوحدة مفرطة ، فهم يهيجون لكل مناسبة . وضد كل انسان . ولكن الحقاد هم أصعب رجوعا إلى الصفاء : وغضبهم يبقى زمنا أطول ، لأنهم يعرفون أن يضبطوا إحساسات قلوبهم . ولا يهدءون إلا بعد أن يأتوا من الشر مثل ما أوتوا فالانتقام هو الذى يسكن غضبهم لأنه يحل اللذة محل الألم ، الذى كان ينهش قلوبهم . وما لم يشف عليهم فلا يزال على قلوبهم ثقل يضايق أنفاسهم ، ولكونهم يحرصون على عدم إظهار شىء فلا أحد يستطيع علاجهم بالاقناع وإنه لابد من زمن لأجل أن يقرض أحدهم غضبه فى نفسه ، أولئك هم شر الناس على أنفسهم ، وعلى أشفق أصدقائهم بهم .

أما أولئك الذين يبقون بلا غضب للأمور التى يلزم الشعور فيها بغضب حقيقى فانهم لا يمكن أن يعتبروا إلا بلداء ، ان هذا الذى لا يغضب . لا يظهر أن له احساسا ولا يعرف أن يثور عند ما ينبغى بل يمكن أن يظن به أنه لا يعرف أن يدفع عن نفسه عند الحاجة . مادام لا يشعر بشجاعة ، غير أن هذه الحال إنما هى تجبن حقيق

بعبد يحتمل الاهانة تقع عليه ويترك أقرباءه موضوعا للاعتداء بلا جزاء

حينئذ هذا الذى يتمشى مع الغضب فى الغرض المناسبة . أو ضد النـاس الذين يستحقونه . وهو على ذلك يتمشى على الوجه اللائق . وفى الحين اللائق . وطول الوقت اللائق ، ذلك يجب أن يقابل باقرارنا إياه ، فليعلم حقا أن هذا هو الحلم الحق . إذا كان الحلم أهلا للثناء.

— ١٥ —

عندما نريد أن ندرس أخلاق من نريد أن نتخذهم أصدقاء ، ينبغى أن نرجع إلى هذه الفصول الأخلاقية الدقيقة المحكمة . التى وضعها أرسطو ، لنتبين إلى أى حد يمكن تطبيقها عليهم ، ولنستطيع فيما بعد ، أن نقبل أو نرفض من الناس من ينبغى قبوله أو رفضه ، حتى لا نتخدع ولا نصحبهم على دخن ، ولا نمنح قلوبنا أناساً لايستحقونها . فندم آخر الأمر ، وتقطع حبال مودتهم مرغمين ، ونرمى بالغدر والعقوق ، بينما نكون نحن فى منتهى الاخلاص والوفاء .

عبد الوهاب عزام الخطيب

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تخليد ذكرى الخديو اسماعيل
٤	اسماعيليات أبي النصر : للأستاذ السباعي بيومي
٢٧	أعلام البيان فى عصر اسماعيل : « عمر الدسوقي
٥٠	الوحدة العربية فى القرن التاسع عشر : « محمد أبو بكر ابراهيم
٦٦	قصة عضو بعثة : للدكتور ابراهيم أنيس
٧١	من حكايات الاطفال الامير نور الدين : للاستاذ عبد الرزاق حميده
٨٣	الصداقة والخصومة : « عبدالوهاب عنانى الخطيب